

واقع التنظير في البحوث السوسولوجية بالجامعة الجزائرية

أ.د خليفة عبد القادر جامعة قاصدي مرياح -ورقلة

أ.باشي أمال جامعة قاصدي مرياح -ورقلة

البريد الإلكتروني: abdelkader12368@gmail.com

البريد الإلكتروني: amelb78@yahoo.fr

ملخص:

ترتبط مسألة إنتاج المعرفة بالجامعة الجزائرية بشكل أساسي بالبحث العلمي و التعليم العالي، الذي يعتمد على مراكز و فرق البحث، حيث تمثل الدراسات الأكاديمية السوسولوجية قطب مهم في بناء المعرفة العلمية، أين تكمن وظيفة عالم الاجتماع في دراسة الواقع الاجتماعي و بناء تصورات لقضايا مجتمع يعيش في عالم متغير، معتمدا في ذلك على مناهج علمية، مسلمات نظرية نابعة من خصوصية المجتمع الجزائري و ثقافته، لكن واقع البحث السوسولوجي في الجامعة الجزائرية يشير إلى عكس ذلك، فهو يبقى دائما تحت تأثير المفاهيم، النظريات، و التيارات الغربية و التي تعتبر المرجعية الأساسية في تفسير واقعنا الاجتماعي.

الكلمات المفتاحية: المعرفة العلمية، النظرية، الجامعة الجزائرية

The Reality of Theorizing in Sociological Researches in the Algerian University

Abstract :

The issue of knowledge production in the Algerian university is primarily related to scientific research and higher superior education. It is based on centers and research teams, where the sociological academic study represents an important pole in the construction of the scientific knowledge; and here it is about the function of the sociologist in the study of social reality and how to build the perception of the community issues, living in a changing world, based on scientific methods, theoretical approaches stems from the specificity of the Algerian society and its culture. But the reality of sociological research in the Algerian University refers to the contrary. It is still under the influence of concepts, theories and western currents, which are the basic references for the interpretation of our social reality

Keywords: Scientific Knowledge, Theory, Algerian University.

مقدمة

يلاحظ المختصين في علم الاجتماع التقصير في الإسهام النظري في تفسير و تحليل الواقع الاجتماعي بمختلف أبعاده، حيث يظهر المجتمع الجزائري كنسق اجتماعي مفتوح شهد العديد من التغيرات، أين يكمن الهدف الأساسي لعلم الاجتماع التفسير العلمي الذي ينطلق من بنية الواقع الاجتماعي لذات المجتمع، التي لا تتسلخ من خصوصية ثقافية و اجتماعية حيث يجب على عالم الاجتماع مراعاتها عند تفسيره للظواهر الاجتماعية المدروسة.

في الجزائر لم يظهر علم الاجتماع اعتباطا، بل كان ناجما عن سياسة استعمارية، تهدف إلى جعل المجتمع الجزائري حقل تجارب للدراسة لكي يعود عليها بمكاسب في شتى المجالات التي من خلالها تم استنزاف خيرات وطاقات الشعب الجزائري وترسيخ أبشع مظاهر الفرقة الاجتماعية و طمس الهوية الوطنية والجماعية الجزائرية، حيث شهدت الجزائر منعطفات و أحداث كثيرة ساهمت في ظهور و تطور علم الاجتماع، و مر بمراحل عديدة انطلاقا من وقت الاستعمار إلى غاية يومنا هذا.

- ماهي المراحل التي ساهمت في ظهور علم الاجتماع بالجامعة الجزائرية؟
- هل فعلا البحوث الأكاديمية في حقل السوسولوجيا تعمل على إنتاج معرفة علمية تعتمد على نظريات تتلاءم و مجتمعا الجزائري؟ أم نحن بصدد إعادة إنتاج ما أنتجه الغرب؟

◀ المرحلة الأولى: السوسولوجيا الكولونيالية

السوسولوجية الكولونيالية هي تلك الدراسات والأعمال التي أجريت خلال المرحلة الاستعمارية في الجزائر والتي عملت على دراسة المجتمع الجزائري والتقيب في بنياته الاجتماعية والثقافية والاقتصادية وذلك محاولة منها لفهم الميكانيزمات التي تتحكم في البنى الاجتماعية والثقافية سواء لخدمة الإيديولوجيا الكولونيالية أو لخدمة البحث العلمي⁽¹⁾.

كما ظهر في هذه الفترة نوع من الدراسات والتي اسماها Georges Balandier حيث تنوع الاهتمام بأشكال المعرفة العلمية، والتي كانت تصب تعبر عن علاقة بين كيانين و ضعف أحدهما⁽²⁾.

إذ عملت السلطات الفرنسية على دراسة البناء الاجتماعي للشعب الجزائري والتقيب عن مواطن القوة و مواطن الضعف في هذا البناء عن طريق جيش من العملاء و الباحثين السوسولوجيين، و الانثروبولوجيين و الضباط و الأكاديميين وذلك بغية تفكيكه و محو مقوماته الروحية، الدينية الوطنية و الثقافية و طمس كل ما يتعلق بمعالم الهوية الجزائرية

غير أنه في الحقيقة لم تكن كل الدراسات السوسولوجية في الحقبة الكولونيالية موجهة لخدمة مصالح الاستعمار فقط بل منها من كانت دراسات سوسولوجية أكاديمية بحتة قام بها مجموعة من الباحثين الأكاديميين الذين قاموا بدراسات جادة في هذا المجال، ومن بين الدراسات السوسولوجية الجادة نذكر ما قام به عالم الاجتماع **Jacques Berque** الذي ترك ما يزيد عن 43 مؤلف وما يقارب 200 مقال ورغم قيامه بمهام في الإدارة الكولونيالية إلا أنه استطاع أن يقوم بالقضية مع الإيديولوجية الكولونيالية⁽³⁾.

ومن بين العلماء الذين أصلوا لعلم الاجتماع في الجزائر نجد **Masqueray** الذي عاش في الفترة ما بين (1883-1994) والذي كان يدير مدرسة الآداب العليا في الجزائر، وقد كان **Masqueray** رائدا من رواد المدرسة الانقسامية التي جمعت بين تحليل الميكانيزمات الداخلية والظاهرانية للمجتمعات وعلى العلاقات القبلية واعتبرتها خصوصية اجتماعية مغاربية ويتميز هذا التحليل الانقسامي بحيويته في تبسيط المعطيات واستخدام الرسوم البيانية والرموز والأشكال التخطيطية، فضلا عن استعمال الاحصائيات والمقارنات⁴.

لقد قام **Masqueray** بدراسة مختلف القبائل والعروش الجزائرية من عرب و قبائل وميزاب وذلك بالتقرب منها والإقامة مع سكانها كمنطقة ميزاب التي مكث فيها لأكثر من شهرين، باستعمال أسلوب المخادعة بلبس لباسهم وتكلم لغتهم وهذا ما سمح له بفهم طبيعة هذا المجتمع المتميز بالانغلاق، حيث قام بجمع مادة علمية هائلة عن بني ميزاب متمثلة في الكتب التاريخية والدينية والتشريعية لميزاب، كما عمل على تأليب بني ميزاب على القبائل العربية الأخرى بحجة أن بني ميزاب هم خوارج كما قال ابن خلدون وذلك بغرض إيقاع العداوة بينهم حتى لا يتحالفوا ضد المستعمر ويسهل احتلالهم، أما الأطروحة التي قام بها تحت اسم **Formation des cistes** فتعد من أشهر أعماله وقد بين فيها أن المجتمع البربري متكون من طبقات

ترتكز أساسا على التضامن كما حلت أسباب التلاحم وقوة المقاومة للاستعمار وأنجع حل هو القاعدة التي تقول: "فرق تسد"، و من بين الباحثين الذين اهتموا بالأولياء والكرامات وكذلك الدراسات المونوغرافية للمدن الجزائرية نجد العقيد " **Corneille Trumelet** " والذي يعد بمثابة مؤرخ السوسولوجية الكولونيالية بالجزائر وإفريقيا عامة وقد قامه بدراسة حول مدينتي البليدة وبوفاريك من خلال الطابع العمراني للمدينتين وطبيعة سكان المنطقة والقبائل التي ينتمون إليها وهذا خدمة للمصالح الإستراتيجية⁽⁵⁾.

◀ المرحلة الثانية: ما بعد الاستقلال (1963-1970):

و جاءت هذه المرحلة غداة استقلال الجزائر وكان علم الاجتماع يدرس بجامعة الجزائر ضمن كلية الآداب والعلوم الاجتماعية من طرف مجموعة من الأساتذة منهم عبد الرحمن بوزيدة، فاروق عطية، عبد الغني مغربي، كلودين شولي ، نور الدين حقيقي، سيدي بومدين و محفوظ سماتي. هؤلاء الرواد الأوائل لعلم الاجتماع في الجزائر و يطلق عليهم اسم الجيل الأول حيث تلمذوا على يد مجموعة من الباحثين الكولونيين.

ومن الصفات التي تميزت بها هذه المرحلة من مسيرة علم الاجتماع في الجزائر هو أن الجامعة الجزائرية كانت تابعة للمدرسة الفرنسية موضوعا ومنهجيا، وكان النظام التعليمي الجزائري مرتبطا ارتباطا وثيقا بالجامعة الفرنسية من حيث البرامج والغايات والاستراتيجيات، كما ظل التوجه الفرانكفوني للخطاب السوسولوجي قائما حتى عام 1971، وهو توجه كرس لهذا الخطاب كعلم كتبي يعني بالتنظير، وهو يفتقر للدراسات الميدانية الواقعية، ويعمل على نقل الإرث السوسولوجي الفرانكفوني إلى الطلبة، ويصب جل اهتماماته على أعمال المدرسة الدوركايمية غالبا، ويكاد يقتصر على النقل دون التأصيل وعلى التحصيل دون التحليل، وعلى الرغم من انتصار الثورة الجزائرية وإعلان الاستقلال عام 1962 إلا أن المقررات الفرنسية في السوسولوجيا ظلت تعالج مسألة الاستعمار على أنها مسألة إنسانية جاءت لخدمة الشعب الجزائري ونقل الحضارة من الضفة الأوروبية إلى الضفة شمال إفريقيا⁽⁶⁾.

ومنه نستخلص أن هذه المرحلة من مسيرة علم الاجتماع في الجزائر كانت متأثرة جدا من حيث المناهج والبرامج بالمدرسة الفرنسية وظلت السوسولوجيا الكولونيالية تدرس في الجامعات الجزائرية رغم الاستقلال وبدا ذلك واضحا في الأعمال والكتابات التي تمت في تلك المرحلة من طرف العديد من السوسولوجيين الجزائريين من الجيل الأول وحتى الثاني.

◀ المرحلة الثالثة: ما بعد الإصلاحات (1971-1984)

وهي المرحلة التي شهدت تحولات كثيرة في الدولة الجزائرية والمجتمع بشكل عام، حيث توالى العديد من الإصلاحات السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، و التي مست قطاع التعليم العالي كباقي القطاعات الأخرى، لهذا كانت الممارسة السوسولوجية التطبيقية في الجزائر جد غنية وثرية في هذه الحقبة وكان لها الأثر البارز والتدخل الفاعل في متابعة حجم التغيرات الحاصلة في الجزائر، وكانت الدولة الجزائرية تشعر بأن ذلك الاختيار هو اختيارها الاستراتيجي⁽⁷⁾.

كنتيجة لاصلاحات 1971 برزت فئتين من المتكويين في العلوم الإنسانية ألا و هما المعربين و المفرنسين، و لكل منهما اتجاهات مختلفة، حيث يميز **حمداش عمار** " فئة المعربين التي درست نصوصا بالعربية على أنها ذات أصل أنجلو ساكسوني، أنجزت دراساتها العليا في إنجلترا و أمريكا، و فئة المفرنسين الذين بدعوا في التعريب، المتجهين أكثر إلى السوسولوجيا الفرنسية المتميزة باتجاه نظري أكثر عمقا و نقدا، فالجانب الإمبريقي موجود أكثر عند المعربين و الجانب النظري الماركسي أو البنوي موجود أكثر عند المفرنسين"⁽⁸⁾.

← المرحلة الرابعة: من 1984 إلى يومنا هذا

شكلت هذه المرحلة منعطفا حاسما بالنسبة للمسيرة السوسولوجية في الجزائر، فبعدما كان هذا العلم في المرحلة التي سبقت علما نقديا إيديولوجيا ثوريا، أصبح مع التوجه الليبرالي الجديد للدولة علما منبوذا، فاقد لكل المكاسب التي حققتها في المراحل السابقة، و هذا بالرغم من ضآلتها، فنجد أن الخطاب الرسمي في هذه الفترة قد تغير موقفا وعملا اتجاه العلوم الاجتماعية عامة و علم الاجتماع خاصة، وأصبحت كل الأنظار متجهة نحو العلوم الطبيعية والتكنولوجية، وذلك باسم التنمية والتغيير⁽⁹⁾.

كما تميزت هذه المرحلة بتغيرات وتحولات اجتماعية كبيرة لم تشهدها الدولة الجزائرية من قبل: **أولها أحداث أكتوبر 1988** حيث خرج الشعب الجزائري إلى الشوارع مطالبا بالتغيير والديمقراطية رافضا للواقع الاجتماعي المزري و الذي قوبل بالعنف. و رغم هذا الحدث فإن الباحثين و المختصين لم يهتموا لدراسة هذه الظاهرة و هذا ما زاد من انتكاسة علم الاجتماع في الجزائر.

أما **الحدث الثاني** الذي يعد كنتاج لأحداث أكتوبر 1988 وهو إعلان التعددية الحزبية في الجزائر وبهذا الإعلان شكلت الجزائر منعطفا حاسما في تاريخها المعاصر، وتوجهت كل أنظار العالم نحو التجربة الديمقراطية الجزائرية الجديدة رغم ما وجه لها من انتقادات. غير أنه وللأسف الشديد لم يتم التطرق لهذه الأحداث من طرف الأخصائيين الاجتماعيين ولم تتل تلك الأحداث اهتمام السوسولوجيين الجزائريين بالدراسة والتحليل وأضيفت انتكاسة أخرى للسوسولوجيا الجزائرية.

أما **الحدث الثالث** و المتمثل في بما يسمى بالعشرية السوداء وهي الفترة التي حدث فيها الانفلات الأمني وظهر فيها الإرهاب الذي أخذ في القتل والتدمير وأصبحت الجريمة والعنف يمارسان جهارا نهارا.

وبعد سياسة المصالحة الوطنية التي أعلنتها الدولة الجزائرية عادت المياه إلى مجاريها وبدأت كل القطاعات تتحرك شيئا فشيئا بما في ذلك قطاع التعليم العالي وأنشئت الجامعات والأقطاب والمراكز الجامعية وبدأ تخصص علم الاجتماع يدرس في كل جامعة تقريبا، وتضاعف أعداد الطلبة والأساتذة المشغولين بهذا العلم وأقيمت المئات من الدراسات السوسولوجية في المجتمع الجزائري سواء الميدانية منها أو النظرية، فالكم موجود، ولكن تبقى مشكلة النوعية، فمعظم تلك الدراسات لم ترقى إلى المستوى المطلوب وذلك إما لضعف التكوين أو لنقص التمويل، وقلّة المخابر السوسولوجية التي تعنى بدراسة الظواهر الاجتماعية في البلاد.

لذلك فالمطلوب من المنشغلين بعلم الاجتماع أن يحدثوا ثورة علمية سوسولوجية وذلك من خلال القيام بدراسات سوسولوجية ميدانية في مختلف الفروع واستدراك ما فاتنا من أحداث سابقة والعودة إليها بالتحليل والتفسير من أجل إعادة الاعتبار لهذا العلم وإثبات الوجود على الساحة الأكاديمية، وكل المقومات موجودة والوسائل متوفرة و التأطير حاضر بوجود أساتذة أكفاء وعلى أعلى مستوى كما أن الظواهر الاجتماعية منتشرة في كل مكان لم يبق سوى بذل الجهد وغزو كل القطاعات الأخرى بالدراسة والتحليل والمشاركة الفعالة في التنمية الاجتماعية، بيد أن حيوية إنتاج المعرفة في أي من الميادين ترتبط بشكل أساسي بوجود قامات من الباحثين.

المنهج: استخدام المنهج يعتبر خطوة علمية مهمة وضرورية يعتمد عليها الباحث أثناء دراسته، حيث أن موضوع البحث هو الذي يفرض على الباحث استخدام منهج معين دون غيره.

و في هذه الدراسة اعتمدنا منهج **تحليل المحتوى** الذي هو عبارة "عن مجموعة من الخطوات المنهجية باستخدام مناهج و تقنيات على أساس ترجمة وثائق اجتماعية من أجل معرفة الحقيقة الاجتماعية، كما هو تحليل للسلوك اللفظي في المواقف الاجتماعية المستخلصة من خلال عملية الملاحظة المباشرة. (10)

العينة: اعتمدنا في هذه الدراسة على **العينة القصدية** التي تتدرج ضمن العينات الاحتمالية، حيث تبدو أكثر ملائمة من المعاينات العشوائية البسيطة... فإنه من السهل عليهم اختيار كل من قائمة عوضا من استخدام جداول الأرقام العشوائية، كما أن المعاينة القصدية أكثر قابلية للاستخدام في المجتمعات الإحصائية الكبيرة أو عند اختيار عينات كبيرة. (11)

حيث قمنا باختيار 60 مذكرة تخرج مستوى ماجستير لسنة (2012-2015) و دكتوراه من جامعة ابو القاسم سعد الله الجزائر، في مختلف تخصصات علم الاجتماع (تربوي، تنظيم و عمل، حضري).

خاتمة:

خلصت هذه الدراسة إلى أن كل الدراسات السوسولوجية محل الدراسة تعتمد النظريات الاجتماعية المنتجة من الغرب في تفسير واقعنا الاجتماعي.

ونستنتج من خلال الدراسة أن مردود الممارسة السوسولوجية في الغالب هو كمي فقط، ويظهر ذلك جليا من خلال البحوث المنجزة والمذكرات والرسائل التي لا تدخل ضمن الإنتاج العلمي الأصيل بقدر ما تدخل ضمن متطلبات نيل درجة علمية معينة، بالإضافة إلى بعض الكتب التي تقع في فخ ما يسميه P.Bourdieu بـ: "حالة التوافق التام التي تؤدي إلى الممارسة الآلية و تخنق الإنتاج العلمي الأصيل".

- 70% من المذكرات تعتمد مداخل نظرية متعددة في الجانب النظري و لا يتم استغلال و لا

نظرية في الجانب النظري و التفسيري للواقع المدروس، مجرد سرد لمختلف النظريات التي تلقاها الطالب في مساره الدراسي، و هنا نلمس الإنتاج الكمي (عدد صفحات كثيرة) يقابله ضعف الجودة.

- البحوث السوسولوجية تعيش حالة اضطراب منهجي (التعدد المنهجي)، أغلب البحوث الاجتماعية لا تتعدى في بحوثها الاعتماد على المنهج الوصفي التحليلي بنسبة 80%.

- كما أن أغلب البحوث محل الدراسات فيها مشاكل في اختيار العينة و كيفية سحبها و تطبيق المنهج العلمي المتعارف عليه، فإذا كانت العينة لب الدراسة خاطئة حتما ستؤدي إلى نتائج خاطئة، يرجع ذلك ربما إلى ضعف تكوين الطلبة في مادة المنهجية.

- أغلب المواضيع المدروسة لا تتسم بالأصالة بل تقليدية يعاد صياغتها في شكل عنوان جديد، و هذا راجع إلى عدم الاهتمام بالجودة و البحث في موضوع سهل المنال من أجل إنجاز مذكرة التخرج و الحصول على الشهادة في أقرب وقت ممكن، فالهدف الأساسي من البحث ليس تقديم معارف جديدة.

- المقاربات النظرية التي يتم إدراجها في جل الدراسات و البحوث أجنبية و مستوحاة من النموذج الغربي، أين تختلف الثقافة المجتمعية، الخصائص الاجتماعية، الاقتصادية، السياسية و الدينية لعينة البحث عن مجتمعاتنا العربية بالتالي قد تقود إلى اختلال بين النتائج المتوصل إليها و الإسناد النظري الذي اعتمد عليه الباحث.

أما جانب التنظير، فنحن نعلم أن المنهاج الدراسي لطلبة علم الاجتماع في مختلف الأطوار الأكاديمية يحتوي على النظريات الكلاسيكية، سواء على مستوى الليسانس، الماجستير أو حتى الدكتوراه بالنسبة لطلبة المدارس الدكتوراه، حيث لا يوجد تجديد و تطوير في المعرفة التي يتلقاها الطالب، فالتراث النظري نفسه الذي يدرس منذ سنين، كما أن هناك تغييب لبعض النظريات الحديثة في سوسولوجيا المجال، سوسولوجيا المهن، النوع الاجتماعي... الخ.

فمن خلال النتائج المنحصلة عليها في هذه الدراسة، فإن البحث السوسيولوجي في الجامعة الجزائرية لا يزال بعيدا عن الواقع الاجتماعي المدروس، بعيدا عن التأصيل العلمي، و لم يتحرر من المفاهيم الغربية حيث لا تكتمل فيه الشروط الاستمولوجية، و كنتيجة حتمية لذلك فإن النظرية الاجتماعية لا تتوافق و مجتمعنا.

و عليه فقد توجب على الجامعة الجزائرية إعادة النظر في مناهجها الجامعية، و كذا القامات العلمية و البحوث الجادة التي تسهم في إرساء قاعدة متينة لإنتاج معرفة علمية جادة تهتم بواقع و بناء المجتمع الجزائري بهدف تطوير الفكر السوسيولوجي الجزائري.

الهوامش

- 1- جمال معتوق(2007). السوسيولوجيا الكولونيالية من أجل قراءة نقدية جديدة، مجلة أفاق لعلم الاجتماع، العدد الأول البلدي، ص7.
- 2 - Georges Balandier (1981). «Sociologie de la dépendance» in : Sens et Puissance, 2ème Ed, Paris, Quadrige/ PUF, pp154-155.
- 3- نفس المرجع، ص11.
- 4- نفس المرجع ص 16.
- 5- نفس المرجع، ص 22.
- 6- جمال معتوق (2006). علم الاجتماع في الجزائر: من النشأة إلى يومنا هذا، بدون دار نشر، الجزائر، ط1، ص81.
- 7- سعيد عيادي(2007). التجربة السوسيولوجية في الجزائر: الممارسة والتأويل، مجلة أفاق لعلم الاجتماع، العدد الأول، البلدي، ص 146.
- 8- حمداش عمار(1990).وضعية البحث السوسيولوجي في الوطن العربي (الدراسات العربية في الوطن العربي) ، المستقبل العربي، العدد 134، أبريل، ص 69.
- 9- نفس المرجع، ص 97.
- 10 -Benoît Gauthier (2009).Recherche sociale de la problématique à la collecte des données, Presses de l'Université du Québec, 05^{ème} édition, Canada, p 416.
- 11 - شاغا فرانكفورت و دافيد ناشمير(2004). طرائق البحث في العلوم الاجتماعية، بئرا للنشر و التوزيع، سوريا، ص 194.